

الأثر الحجاجي لأسلوب الاستفهام في الخطاب القرآني تأملات في سورة الكهف

د/ خميسي شرفي

جامعة: العربي التبسي - تبسة

ملخص:

القرآن الكريم كتاب سماوي يحمل الخطاب الإلهي إلى البشرية جمعاء، وفيه دعوة صريحة إلى الوحدةانية. وللاقتناع بها تنوعت طرائقه التبليغية بين ترهيب وترغيب، ووعظ وإرشاد، و محاوره وحجاج. ويعدُّ هذا الأخير (الحجاج) أبرز الطرائق التبليغية، حيث تتنوع أساليبه الإقناعية بين أفعال لغوية وأساليب بلاغية، منطقية وشبه منطقية. ومن الأساليب اللغوية نجد الاستفهام الوارد في سورة الكهف بصورة لافتة للانتباه نظرا لطبيعة هذه السورة القصصية وارتباطها بالجانب العقائدي المبني على الحجاج.

الكلمات المفتاحية:

الخطاب القرآني - طرائق التبليغ - الحجاج - الأساليب اللغوية - الاستفهام.

Résumé :

Le Saint Coran est une révélation divine véhiculant un discours divin à l'humanité entière les incitant tous au monothéisme. Pour convaincre le destinataire, les outils d'expression mobilisés se présentent sous forme de menace ou de promesse, de prêche ou d'instruction, de dialogue ou d'argumentation. Cette dernière est censé être la plus célèbre des stratégies communicatives, ces techniques de persuasion sont multiples allant d'actes de langage aux procédés rhétoriques logiques ou pseudo logiques. Parmi les procédés linguistiques utilisés, on constate celui de l'interrogation qui abonde dans le chapitre de la caverne, vu le contenu narratif de cette sourate lié à la doctrine et basé sur l'argumentation.

Mots clefs :

discours coranique, procédés de communication, argumentation, procédés linguistiques, l'interrogation

الحجاج آلية تعبيرية من آليات الخطاب الإنساني المتاح باللغة المكتوبة أو المنطوقة، إضافة إلى أنه نشاط لساني منطقي ضمن هذا الخطاب. ونظرا لانتساع دائرة استعماله يصعب تحديد مفهوم دقيق له، إنه موزع بين مختلف الحقول المعرفية، « إذ نجده متواترا في الأدبيات الفلسفية والمنطقية والبلاغة التقليدية، وفي الدراسات القانونية والمقاربات اللسانية والنفسانية والخطابية المعاصرة»⁽¹⁾.

ولئن كان المفهوم الاصطلاحي للحجاج متشعبا، فعلى عكسه تماما يكاد يكون معناه اللغوي متشابها في مختلف الثقافات ففي معاجمنا العربية التراثية يرتبط الحجاج لغويا بالتنازع والتخاصم والتغالب واستعمال البرهان والدليل، وذلك ما نقف عليه في لسان العرب، وفيه نجد « حاجته أحاجبه محاجًا ومحاجبة حتى حجته: أي غلبته بالحجج التي أدليت بها. والمحجة: الطريق، وقيل جادة الطريق ...

والتحاجج : التخاصم، وجمع الحجة : حجج وحجاج، وحاجّه محاجّة وحجاجا: نازعه الحجة . وحجّه يحجّه حجًا: غلبه على حجّته. وفي الحديث: فحجّ آدمُ موسأى غلبه بالحجة. واحتجّ بالشيء اتّخذَه حجّة». (2).

علما أن كلمة الحجاج بحكم صيغتها الصرفية التي تحمل معنى المشاركة في تقديم الحجج وتبادلها، و مقابلة الحجة بالحجة، فهي مؤهلة أكثر من كلمة الاستدلال لتدلّ على معنى المناقشة والحوار المقنع (3).

وعند الغربيين يقابل "الحجاج" لفظ "Argumentation" التي تقترب من المعاني الواردة في معاجمنا العربية. ففي المعجم الإنجليزي (كامبردج) نجد أن « الحجاج هو الحجة التي تعلّل أو تبرّر مساندتك أو معارضتك لفكرة ما» (4)

وفي قاموس (روبير الكبير) يرد الحجاج بمعنى « القيام باستعمال الحجج، أو مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة ، أو هو فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة معينة» (5).

كذلك فالمفهوم الاصطلاحي للاصطلاح يكاد يتماهى مع معناه اللغوي، وإن تعدّدت حقول استعماله، حيث ينظر إليه على أنه « جنس خاص من الخطاب، يبنى على قضية أو فرضية خلافية يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيًا قاصدا إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية» (6).

وهو بحسب ما ذهب إليه طه عبد الرحمان « كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها» (7). وباعتباره نشاطا لسانيا يذهب الباحث نفسه إلى القول بتداولية الحجاج « لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجيهات ظرفية،

ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء موجهها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة»⁽⁸⁾. وباعتبار دور البلاغة البارز في بيان أهمية الحجاج أثناء التخاطب، حيث تركز في الخطاب على جانبين اثنين هما: البيان والحجاج لغاية إقناع المستمع، فإن رائدي النظرية البلاغية الجديدة "بيرلمان" و "تيتيكا" حدّدا موضوع الحجاج بقولهما: «إن موضوع نظرية الحجاج هو دراسة التقنيات التي من شأنها أن تسمح للأذهان بقبول ما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك القبول»⁽⁹⁾. وهما يريان أن الغاية من الحجاج أنه يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، حيث أن أنجع الحجاج ما وُقِّق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، على الأقل في جعل السامعين مهئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة⁽¹⁰⁾.

والحجاج كخطاب لساني تداولي يسعى إلى تجاوز النظر فيما هو حقيقي مثبت إلى التعامل مع حقائق تمتاز بالتعدّد والتنوع ، لأن مبعثه الاختلاف، وشرط نجاحه أن يقوم على موضوعية الحوار بحيث لا يكون طرف الحوار الثاني خصما بقدر ما يكون متعاوننا من أجل تحقيق غاية شريفة وسامية هي استمالة المتلقي لما يعرض عليه⁽¹¹⁾. فنجاح الخطاب الحجاجي يكمن في مدى مناسبته لطبيعة السامع المستهدف، ومدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة على إقناعه والتأثير فيه.

والقرآن الكريم من الخطابات التي يتجلى فيها حضور الحجاج كآلية تعبيرية إقناعية، فهو خطاب إلهي موجه إلى الشريعة جمعاء، «جاء ليسطرّ للفرد علاقته مع خالقه ونفسه وغيره من بني البشر وما بسط في الطبيعة ككل، وذلك بتشريع الأحكام، وتوضيح المقاصد، وتبيين طرق المعاملات، وغير ذلك»⁽¹²⁾ من التوجيهات. وهو أيضا خطاب يقوم على الحجج والأدلة والبراهين التي يستخدمها للتأثير في جمهور السامعين والمتلقين على اختلاف مشاربهم وتواجدهم عبر الزمان والمكان، كما يحاول استمالة عقولهم وتوجيه نفوسهم وهدايتهم إلى الحق. وهذا ما اقتضى أن يكون القرآن خطابا حجاجيا بالدرجة الأولى.

ومظاهر الحجاج وطبيعته في الخطاب القرآني «تختلف من سورة إلى أخرى، وهذا بالنظر إلى عدد الروابط ونوع العلائق المنطقية التي تشتمل عليها السورة، ثم إن بعض السور القرآنية لها طابع حجاجي قوي، وهذا في تناسب وانسجام تام مع المضمون العام

للسور»⁽¹³⁾ وطبيعة المرحلة التي نزلت فيها، لذلك يغلب على السور المكية، مقارنة بالسور المدنية، الجدل والحجاج، والوعظ والإرشاد، والوعد والوعيد. فالقرآن الكريم لم يقتصر في الإقناع بحجته بطريقة واحدة، بل تنوعت طرقه في عرضها، ليكون خطابه ألزم للحجة و أدعى إلى القبول و الملاءمة لكل عقل بشري، ولكل حالة نفسية، ولكل زمان ومكان، ليكون هذا الكتاب السماوي معجزة خالدة وحجة بالغة.

ومن السور القرآنية التي يحضر فيها الحجاج سورة الكهف، وهي سورة مكية يبلغ عدد آياتها مئة وعشر، وهي تعرض قصص العقيدة عبر التاريخ الإنساني في أحداث ومشاهد حية تواجه بها أشخاص عاندوا في ضلالتهم، فيواجههم الخطاب القرآني بهذه القصص الواقعية التي تتضمن عبرا لينذرهم ويذكرهم، ويخوض معهم حوارات قوامها الحجج والأدلة والبراهين الواضحة والممكنة. وأساليب الحجاج في هذه السورة قد تعدد تبين الأساليب لغوية والأساليب البلاغية والأساليب الشبه المنطقية. ونظرا لهذا التعدد في الأساليب الحجاجية، فإننا سنعمد إلى التعامل فقط مع نوع من أنواع الأساليب اللغوية متمثلا في الاستفهام.

• الاستفهام وصوره الحجاجية:

الاستفهام من الأفعال اللغوية التي تندرج ضمن مباحث علم المعاني، وتحديدًا إلى الأساليب الإنشائية التي «هي الجمل والأقوال التي لا تصف أي واقع في العالم الخارجي، فلا يمكن أن يقال عنها صادقة (مطابقة لواقع ما)، أو كاذبة (غير مطابقة له)، ولكن مجرد النطق بها يشكل في حد ذاته فعلا معيناً»⁽¹⁴⁾. وتلعب هذه الأفعال أو الأساليب اللغوية أدوارا متنوعة كأدوات حجاجية، فهي تسعى إلى تحقيق أغراض تواصلية وتأثيرية من خلال «صناعة أفعال ومواقف اجتماعية أو سياسية أو فردية بالكلمات، والتأثير في المخاطب بحمله على فعل أو تركه، أو دعوته إلى ذلك، أو تقرير حكم من الأحكام، أو توكيد، أو التشكيك فيه، أو نفيه، أو وعد المتكلم للمخاطب، أو وعيده، أو سؤاله واستخباره عن شيء، أو إبرام عقد من العقود، أو فسخه، أو مجرد الإفصاح عن حالة نفسية معينة... إلخ»⁽¹⁵⁾، وهذا يعني أن وظيفة الأفعال اللغوية لا تقتصر على التواصل فحسب، وإنما هي أدوات تستخدم لإنجاز أفعال مخصوصة من جهة، والتأثير في جمهور المخاطبين من ناحية ثانية. وإذا كان الاستفهام كواحد من هذه الأساليب اللغوية، وبحسب ما يراه النحويون والبلاغيون، نوعين: -استفهام حقيقي: وهو الذي يريد المستفهم من ورائه «معرفة صدق الخبر أو كذبه»⁽¹⁶⁾، حيث يحيل على إشكالية معرفية تجعل السامع مضطرا للإجابة عنها إجابة تسيير

في الاتجاه الذي يرسمه السؤال. وهذا النوع من الاستفهام قد يوظفه المتكلم فيكتسب سؤاله ودلالة الجواب عنه دلالة حجاجية، وذلك بفعل دخولهما في العلاقة الحجاجية التي تمنحها بعدا أو طابعا حجاجيا بحيث يتمكن المتكلم من إنتاج الحجج.

- استفهام غير حقيقي: وهو استفهام حجاجي يستلزم « تأويل القول المراد تحليله انطلاقا من قيمته الحجاجية، على أنه يتجه وجهة القول المنفي »⁽¹⁷⁾. فإن الاستفهام الحجاجي (غير الحقيقي) يُعدّ من أنجع أنواع الأفعال اللغوية نظرا للدور الذي يلعبه في تعميق درجة الإقناع بالنتيجة التي يتوجه إليها الملفوظ، ومن استمالة السامع وتوجيهه وجهة معينة دون أخرى. وفي سورة الكهف خرج الاستفهام عن غرضه الأصلي لعبت دورا حجاجيا بارزا، منها:

1 - التقرير:

يقصد به إقرار المخاطب بأمر استقر عنده، فيخرج هذا التقرير بصورة الاستفهام، ذلك لأنه أوقع في النفس، وأدلّ على الالتزام⁽¹⁸⁾، فالغرض من الاستفهام التقريري هو إلزام السامع بالحجة، حيث ينتزع المتكلم منه الاعتراف الذي يرغب في معرفته. وورد هذا النوع من الاستفهام في سورة الكهف، في قوله تعالى: «قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» [الكهف 72]، فالاستفهام التقريري الذي تمّ بالهمزة يتضمن قوة حجاجية تتمثل في أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنبيه موسى - عليه السلام - وللبشر من بعده أن علم الإنسان يبقى محدودا، وذلك من خلال إرساله إلى العبد الصالح " الخضر " وهبه الله - عزّ وجلّ - علما يفوق علم بقية البشر. فلم يستطع موسى - عليه السلام - الالتزام بالصبر أمام أمور عجيبة قام بها الخضر - عليه السلام - ولم يكن هو يعلم تأويلها.

2 - الإنكار:

يحصل غرض إنكار المسؤول عنه إذا كان المستفهم عنه أمرا منكرا عرفا أو شرعا. ومن أمثلته قوله سبحانه وتعالى: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» [الكهف 9]، فهذا الاشتمال يشتمل على قوة حجاجية تتمثل في أن الله عزّ وجلّ أراد أن يلفت انتباه السائلين إلى أن قصة أصحاب الكهف والرقيم ليست بأعجب آية، بل هناك آيات أعجب منها، مثل: خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر...

ولقد أشارت هذه الآية إلى قصة أصحاب الكهف كإحدى الحجج التي تثبت صدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين - عليه السلام - .

نسوق مثالا ثانيا للاستفهام الحجاجي في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف19]، وتتضمن هذه الآية الكريمة استفهاما إنكاريا في قوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ وتبرز قوته الحجاجية في استنكار أصحاب الكهف من أنفسهم طول رقتهم، لأن دخولهم إلى الكهف كان أول النهار واستيقاظهم كان في آخره، فقال بعضهم: لبثنا يوما، ولما رأوا الشمس قالوا: أو بعض يوم. وقال بعضهم الآخر بما توفر لهم من الأدلة، أو بإلهام من الله، أنتم لا تعلمون مدة لبثكم، لأنها متطاولة ومقدارها مبهم، وإنما يعلمها الله تعالى⁽¹⁹⁾، ثم عدلوا إلى أمر أهم هو احتياجهم إلى الطعام، فبعثوا بأحدهم إلى المدينة ليحضر لهم أطيب الأطعمة التي تسد رمق جوعهم.

وبحسب مذهب علماء البلاغة، فالاستفهام الانكاري نوعان: الأول استفهام تكذيبي، وهو أن ينكر المستفهم من شخص معين أمرا ما. فإما أن يكون هذا الأمر قد ادّعاه لنفسه، وليس ذلك صحيحا، فيكذّبه المتكلم فيما ادّعى⁽²⁰⁾

فهذا الاستفهام يكون على أمر لم يحصل في الماضي ولن يحصل في المستقبل. والثاني استفهام توبيخي، وهو أن ينكر المستفهم على شخص ما قولاً معيناً قاله، أو عملاً عمله ولم يكن ينبغي له ذلك، فيوبخه على ما صدر منه⁽²¹⁾، فقد يكون على شيء حدث بالفعل أو يمكن أن يحدث في المستقبل. ولئن انعدم الاستفهام التكذيبي في سورة الكهف، فعلى عكسه تماما ورد الاستفهام التوبيخي في عدة آيات من هذه السورة. ففي قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف71]، دلّت العبارة ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ على استفهام إنكاري توبيخي تكمن قوته الحجاجية في إنكار موسى - عليه السلام - على العبد الصالح خرقة لسفينة أولئك الناس الذين أحسنوا إليهما وحملوهما دون ثمن، ليغرقهم ويتسبب في هلاكهم بحسب ظن النبي موسى - عليه

السلام-

وهذه الحقيقة يؤكدّها ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية بقوله: «أن محل الإنكار فيها هو العلة بقوله تعالى ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، لأن العلة ملازمة للفعل المستفهم عنه، ولذلك توجه موسى - عليه السلام - إلى تغيير هذا المنكر في ظاهر الأمر، وتأكيد إنكاره»⁽²²⁾.

بقوله: «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا». فالخضر وفق رأي موسى - عليه السلام - قام بعمل ضار وجب تغييره وإصلاحه.

كذلك في قوله تعالى: «فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا نَقِيَا غَلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا» [الكهف 74]، نجد الأسلوب الاستفهامي التوبيخي «أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ» قد تضمن قوة حجاجية تكمن في إنكار موسى - عليه السلام - على العبد الصالح قتله لغلام صغير لم يقترف ذنبا في حياته، فالخضر، حسبه، قام بعمل سيء تنكره العقول وتتفر منه النفوس، «فهو أشد من الشيء الإمر»⁽²³⁾، لأن هذه الحادثة لا يمكن تغييرها ولا إصلاحها حسب رأي موسى - عليه السلام - الذي لم يكن يعلم تأويل هذه الحوادث.

ونسوق مثالا ثالثا للاستفهام التوبيخي قوله سبحانه وتعالى: «هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» [الكهف 15]، فالاستفهام الإنكاري الوارد في هذه الآية الكريمة في عبارة «فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» يتضمن قوة حجاجية تظهر في إنكار أصحاب الكهف على أهلهم عبادتهم لآلهة متعدّدة من دون الله الواحد الأحد، ولم يستطيعوا أن يأتوا بحجة أو برهان على صحة اعتقادهم، فقد «كذبوا على الله في ذلك إذ أثبتوا له صفة مخالفة للواقع»⁽²⁴⁾، وكذلك ظلموا أنفسهم بعنادهم ومعارضتهم لعقيدة التوحيد.

كما نجد الاستفهام الحجاجي كأسلوب لغوي بلاغي قد خرج في سورة الكهف إلى أغراض أخرى منها:

3 - التعجب:

يراد به «أن يكون المستفهم عنه مثيرا للعجب والدهشة»⁽²⁵⁾، هذا النوع من الاستفهام ورد في سورة الكهف في عدّة آيات، نورد منها قوله تعالى: «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا» [الكهف 37]، حيث يبرز الاستفهام التعجبي المشحون بالحجاج في عبارة «أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا»، وتكمن فاعلية الإقناع في تعجب العبد المؤمن من أمر صاحبه الذي كفر بالله تعالى، وجدد النعم التي أنعم بها عليه، كما أشرك به وأنكر قيام الساعة. وفي المقابل يظهر العبد المؤمن الذي لا مال له ولا عشيرة متمسكا بالإيمان وعبادة الله وحده.

لقد أشارت هذه الآية الكريمة التي يطغى عليها الحجاج عبر سياقها الحوارى إلى قصة «أخوين من بني إسرائيل ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فتشاطراها، فاشتري الكافر ضياعا وعقارا، وأنفق المؤمن ما ورثه في أفعال الخير وطاعة الله» (26)، فإله جلّ وعلا يضرب المثل بهذه القصة ليبين حال الفريقين المؤمنين والكافرين، ذلك أن الكفار يعيشون في الخير والنعيم، لكنهم جحدوا بهذه النعم، وأشركوا بالله، بينما المؤمنون يعيشون في فقر لكنهم أطاعوا الله وآمنوا به. فهذه القصة بما فيها من عبر تثير تعجب السامع وتؤثر فيه.

كذلك يبرز الاستفهام التعجبى ذو الشحن الحجاجى في قوله تعالى: «وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا» [الكهف 49]، حيث تتضمن الآية الكريمة استفهاما تعجبيا في العبارة «مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا»، والذي تكمن قوته الحجاجية في تعجب الكفار من إحصاء كتاب كل واحد منهم يوم البعث لأفعالهم الصغيرة والكبيرة. والمراد «بالصغر والكبر هنا الأفعال العظيمة والأفعال الحقيرة، والعظم والحقارة يكونان بحسب الوضوح والخفاء، ويكونان أيضا بحسب القوة والضعف، وتقديم ذكر الصغيرة لأنها أهم من حيث يتعلق التعجب من إحصائها، وعطفت عليها الكبيرة لإرادة التعميم أيضا مما يثير التعجب» (27). وفي تعجبهم عبر الاستفهام من الكيفية التي أحاطت من خلالها كتبهم يوم القيامة بجميع أعمالهم الحسنة والسيئة تبرز فاعلية الأسلوب الحجاجى.

ومن المواضع الأخرى من سورة الكهف التي ورد فيها الاستفهام التعجبى ذو الشحن الحجاجى قوله تعالى: «قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا» [الكهف 63]، ففي هذه الآية تضمنت عبارة «أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ» استفهاما تعجبيا تجلت قوته الحجاجية في تعجب فتى موسى (يوشع بن نون) من خروج الحوت الذي أصبح حيا من المكتل، و ألقى بنفسه في البحر، فاتخذ سبيله فيه عجبا، كما تنبّه إلى أن الشيطان شغل تفكيره وألهاه بأشياء أخرى لكي لا يتذكر تلك الحادثة العجيبة، لأن الشيطان يسوءه لقاء هذين العبدین الصالحين، وما له من أثر في تبادل العلوم والمعارف الصالحة بينهما، لذلك أراد تأخير لقائهما (28). فهذا الاستفهام بنا يحمله من شحن حجاجى يثير انتباه السامع وتعجبه.

4 - العرض:

هو طلب الشيء برفق ولين، ويتم بواسطة أدوات مخصوصة، لكن الاستفهام قد يخرج أحيانا عن غرضه الأصلي إلى أغراض بلاغية أخرى تفهم من خلال السياق، منها العرض ومثاله في سورة الكهف قوله تعالى: «قالوا يا ذا القرنين إن ياجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا» [الكهف 94]. فهذه الآية تضمنت استفهاما يفيد العرض، وعبارته هي «فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا»، وتتجلى قوته الحجاجية في الطريقة الرقيقة الرفيعة التي عرض بها هؤلاء القوم على ذي القرنين أن «يقيم لهم سدا في وجه ياجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين، ويغيرون عليهم من ذلك الممر، فيعيثون في الأرض فسادا، ولا يقدرّون على دفعهم وصدّهم»⁽²⁹⁾، لكنّه رفض المال الذي عرضوه عليه لأن الله عزّ وجلّ أعطاه من العم والقوة ما يغنيه عن أموالهم وأملآكهم، وسألهم أن يعينوه بجهدهم حتى يقضي طلبهم.

ومن خلال الأمثلة السابقة تبين كيف يسهم الاستفهام كأسلوب لغوي بلاغي مشحون بالحجاج بمختلف أغراضه الحقيقية وغير الحقيقية في الإقناع واستمالة السامع والتأثير فيه وتوجيهه وجهات معينة دون سواها. ومن ثمّ كان من بين أهمّ الأفعال اللغوية التي وظفها الخطاب القرآني في أسلوبه الحجاجي الذي يعدّ آلية تعبيرية من آليات تبليغ التعاليم الواردة في هذا الكتاب السماوي الكريم.

الهوامش:

- 1- محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الناشر للثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص6.
- 2- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مجلد 2، ج 09، د.ت، مادة (ح ج ج)، ص779.
- 3- صولة عبدالله: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ج1، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، 2001، ص13.
- 4-(Cambridge Advanced Learners Dictionary , Cambridge University Press, 2nd pub, p56.)
- 5-(Le Grand Robert : Dictionnaire de la langue Française, Paris, 1989, p53.)
- 5- محمد العبد: النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، عدد 60، 2002، ص44).

- 7- طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، ط1، 1989، ص266.
- 8- طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص65.
- 9- ChaimPerelman et OlbrechtsTyteca : Traité de l'argumentation – La rhétorique , Edition de l'université de Bruxelles, 5^{em}ed, Belgique, 1992, p05.)
- 10- ينظر المرجع نفسه، ص59.)
- 11- ينظر خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص107.)
- 12- عبد الحليم بن عيسى: البيان الحجاجي في إعجاز القرآن – سورة الأنبياء أنموذجا- مجلة التراث العربي، دمشق، سوريا، عدد 102، 2006، ص33.
- 13- أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، ص 28.
- 14- المرجع نفسه، ص 54.
- 15- مسعود صحراوي: التداولية عند العرب – دراسة لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص11.
- 16- أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، ص58.
- 17- المرجع نفسه: ص57.
- 18- المرجع نفسه: ص57.
- 19- ينظر محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهري الشافعي: تفسير حدائق الرّوح والريحان في روابي علوم القرآن، مجلد 16، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص 305.
- 20- ينظر فضل حسين عباس: البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، ج1، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط2، 2005، ص201.
- 21- المرجع نفسه، ص20.
- 22- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج15، الدار التونسية للنشر، 1984، ص 378.
- 23- المرجع نفسه، ص 61 .
- 24- المرجع نفسه، ص 275.
- 25- عبد الكريم يوسف: أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، غرضه وإعرابه، مطبعة الشام، ط3، 2000، ص18.
- 26- فخر الدين الرازي: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص125.
- 27- ابن عاشور تفسير التحرير والتنوير، ج15، ص ص 338،339.
- 28- المرجع نفسه، ص 367.
- 29- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط23، 1994، ص 2293.